الدكتور يعقوب صرُّوف

١ — الاقتصادي والعصامي

تحدث الينا الكتَّاب عن المغفور لهُ الدكتور يعقوب صرُّوف كاتباً وادياً وشاعراً ومؤرخاً فذكَّرونا بمكانة الراحل الكريم العلمية وبفضله على لغة الضاد بما جدد فيها وحبَّر والَّف ونشر زهاء خمسين سنة كان صرُّوف فيها الكوكب المنير والعلَم الذي يهتدى به. ونحن نرى الآن آثار اصلاحه من تهذيب في تعابيرنا الكتابية ومن انقلاب في طرق تفكيرنا فصرنا اميل الى قبول الجديد واسرع الى التمحيص طلباً للحقيقة التي كانت ضالتهُ المنشودة فلا نجفل من رأي يخالف تقاليدنا ولا نرتعش من بحث لا يتفق مع عقائدنا. الاَّ ان الكتَّاب الافاضل الذين كتبوا لايفاء الفقيد الكريم حقهُ من الفضل لم يتكلموا عن مكانة الفقيد في الاقتصاد وفي تمثيله العصامية وما عاد من منافعها على قراء المقتطف خاصة وعلى الشرق عامة وهذا ما أرجو بيانهُ في هذا المقال

وقبل الخوض في الموضوع أرى من الضروري ان اوضح ما اقصد من كلة « اقتصاد » وكلة «عصامية» تمهيداً لما اريد كتابتهُ عن مكانة الفقيد فيها

فكلمة « اقتصاد» تساير اليوم كلة « الادب ». هذا يشمل علوم اللغة وفنونها وكلة «الاقتصاد» تشمل جميع الاحوال المعاشية من زراعة وصناعة وتجارة وتلك تجمع اليوم موارد الثراء للافراد والامم وعليها يتوقف رخاء الشعوب وتقدمها في مدارج العمران

اما العصامية فتطلق للدلالة على الرجل الحازم المقدام الذي يقدم على العمل لتكوين نفسهِ بنفسهِ فيشيد لهُ مكانة وفخراً بين تزاحم المزاحمين ومنافسة المنافسين لا يعول على مال ولا وسيط بل يعتمد على قواهُ ومواهبهِ الخاصة فيصل الى حيث يريد من اعتبار الناس ويبني مجده بيده

اما أن الدكتور يعقوب صرُّوف كان من رجال الاقتصاد ومن نوابغهم بل ومن زعمائهم ايضاً فتشهد لهُ بذلك كتاباتهُ في المقتطف وما والاهُ بنفسهِ من فنونهِ في حياتهِ الجامعة لانا كلنا نشهد لهُ بالتفوُّق في كل ما كتب وعمل في باب الزراعة التي عرف لها خطورتها في البلاد الشرقية وخصوصاً في الديار المصرية فخصها مقالات متعة ارشد القراء بها الى وسائل زيادة الانتاج من اصلاح التربة واختيار البزور وانتخاب

السلالات واستعمال الاسمدة واتقان طرق الري وتنقية الحشائش ومقاومة الآفات فكان يفرد لكل موضوع منها مقالات يختار للتعبير في كتابة حقائقها ابسط الكلمات حتى الالفاظ العامية لتعميم فائدتها عند الخاصة والعامة فلا تفوت البلاد منافعها . ولم يقتصر في كل ما كتب في الزراعة على نقل نتائج اختبارات الآخرين الزراعية التي كانت تصل الى علمه فينشرها بل كان يتحراها في زراعاته الخاصة ويأتي على ذكر اختباراته الشخصية فيها فكان يقرن العلم بالعمل ويعوّل الكثيرون على قوله حتى كان المقتطف المنبر الوحيد — الى حين — بين المجلات العربية الذي يجد فيه الناس وسائل الارشاد والاسترشاد في هذا الموضوع الحيوي العظيم فيتبارى فيه المتبارون ويتسابق اليه المزارعون

كذلك حال الدكتور صرُّوف في الصناعات ففي ابواب المقتطف فصول عديدة ومقالات كثيرة كان ينشرها عن الاكتشافات والاختراعات وعن الصنائع والفنون فكان من يطالع المقتطف يطلع على كل ما جدَّ منها شهراً فشهراً ولا تفوتهُ شاردة ولا واردة من تقدم الصناعات ورقيها على اختلافها . ثم انهُ لم يكتفِ بما تقدم من عنايته بتنوير الاذهان بل جعل من المقتطف مدرسة يتلقى فيها طالب الصناعات دروساً علمية وعملية كمقالاته في صنع الزجاج والاصباغ ومفعولها ودودة الحرير وتحليل حريرها ثم صقله ونسجه وبصمه وكذلك في الجلود ودبغها والسكر وتكريره واستخراج المعادن وسبكها . ولهُ في هذا الباب اليد الطولى وآراء معلومة في وضع الحروف الكتابية المستحدثة ناهيك عن اجابته عن الاسئلة العديدة التي كانت ترد على المقتطف تباعاً في الصناعات فكان يجيب عنها اجوبة صائبة تدل على معرفة وتفصّ في موضوعاتها كانهُ احد العاملين فيها

عرف الدكتور صروف اهمية الزراعة والصناعة كما قدمنا فعمل على تشويق الناس وترغيبهم في معاطاتها لانهما المورد ان الحقيقيان لرخاء الامم ورفاهيتها ولكي يزيد تشجيع الناس على الاقبال عليها لم يتأخر عن نشر الاحصاءات العديدة في مدة مزاولته للكتابة لارشاد الناس الى مقادير الانتاج في مختلف الانواع الزراعية والصناعية وعن الاتيان على ذكر مواضع الانتاج والاستهلاك ليطلع عليها صاحب الزراعة او الصناعة فيعلم منها ايضاً انتقال الغلال من بلد الى بلد في اسواق العالم التجارية حيث تفق العروض فكان في ذلك للتاجر المصري مرشداً حتى يميد الى اختيار اوفق الاسواق لمصالحه فتستفيد البلاد من استيراد انواعها الجيدة بأرخص الاثمان واقل النفقات

فالدكتور صروف كما اوضحت عمل في الزراعة والصناعة والتجارة علميًّا وعمليًّا. فألّف فيها ونشر في موضوعاتها كثيراً من المباحث فلا يخلو عدد من اعداد المقتطف من مقالات في هذا الباب كما انه عمل بها عمليًّا فتعاطى شؤون الزراعة في اراضيه الواسعة وشؤون الصناعة في مطبعة المقتطف والمقطم حيث كان يراجع مسودات ما يطبع من المطبوعات فيها ويعنى العناية كلها باتقان تلك المطبوعات وجمال مظهرها وما يتعلق بترويجها بما كان يختار من الطرق لنشرها وتوزيعها ولبيع محصلاته الاخرى. فهو من هذا القبيل الرجل الجامع الذي ينطبق عليه القول انه رجل الاقتصاد بكل ما في هذه الكلمة من معنى علماً وعملاً وقد ختم حياتهُ الاقتصادية بالآراء التي كان يبديها في موضوع القطن ونحن لا نتعرض لنظرياته المذكورة ومما يذكر لهُ اخيراً مجاهرته بالرأي الخاص بعدم الاحزاب السياسية المصرية وبوجوب جعل حزب اصحاب المصالح الاقتصادية في البرلمان هو حزب الاكثرية لانهُ عرف ان بعد نيل مصر الاستقلال لا تقوم قائمة لها الاَّ اذا نالت مكانها في عالم الاقتصاد فيجب ان تسعى اليه وتذب عنهُ بما تستطيع من قوة لكي تتمكن من صيانة نفسها وضمانة مستقبلها فالواجب اذاً تقديم هذا على كل ما سواه لان المال قوام الامم وسبب الرخاء كما هو مسبب الاحن وقد اسهب في هذا الموضوع في روايتيه فتاة مصر وفتاة الفيوم ومن يرجع اليهما يرَ كثيراً مما تحقق من آرائه البعيدة في حياة مصر الاقتصادية

***

وعندنا ان عناية الدكتور صروف بالموضوعات الاقتصادية وصدق آرائه فيها يرجع الى انّ الدكتور صروف درج وعاش عصاميًّا وهي ميزة أهل البقرية والنبوغ في كل الامم وفي جميع الاجيال تمكن صاحبها من استيعاب الاحكام الصادقة في نظرياتهم البعيدة التي تخفى على كثيرين ممن تربوا التربية المخالفة لتربية العصامي. فهذا يدرك الامور بما تجلى فيهِ من بداهة وذكاء لان تحصيله العلم يقترن بتحصيل المال نفسه مما يميزهُ عن ذلك السري الذي ورث المجد عن ابيه فاقتصرت مواهبه على معرفة الدائرة التي هو فيها فلا ينظر الى ابعد منها ولا يطلب بعدها من مزيد. اما الرجل العصامي فيخرج الى معمعان الحياة لا يستند الى سند أب او حماية قريب او الى مال او عقار موروث بل يجد بعكس ذلك ابواب التقدم مغلقة دون امامه واما به بل ان المعاكسين يتربصون لهُ الفرص للشل من جهوده واستغلال قواهُ في ترويج مصالحهم فيدفعهُ

حب المجد الى شق طريقهِ بنفسهِ فيعمل على ايجاد الوسائل محاولاً تذليل الصعاب ولهذا تقوى فيهِ غريزة الاعتماد على النفس كما تقوى فيهِ قوة الاستنتاج والحكم فيعمل بهما ويتقدم الى الامام لا ينظر يمنة ولا يسرة بل يرمي الى الوصول الى غايتهِ فيبلغها مهما عاكستهُ الاحوال وحالت دونهُ الصعوبات. يدلُّك على هذا في صروف هجرتهُ الى بلاد مصر وما تحلى بهِ من حزم وثبات رغم ما قام في وجههِ امامهُ من عقبات. واليك دليلاً آخر يدلك على نفس صروف العصامية وهو ترجمتهُ كتاب سر النجاح لانهُ رأى في تاريخ اولئك العصاميين الذين اتى على تراجم اخبارهم وشاد بذكر همهم واعمالهم ما جعل كتابهُ هذا المنبه الاول في لغة الضاد والدافع للكثيرين للنهج على منهاج اولئك الاساطين في الصناعة والتجارة فاستفادوا منهُ وخلفوا ما يقارب من مجد اولئك اذا راعينا النسبة بين الاوساط والامكنة والوسائل.

هذه لمحة من حياة الدكتور صروف الاقتصادية والعصامية رأيت من الواجب اذاعتها لتكون مثالاً للشباب الناهض وليعرفوا ميزة هذا الرجل الذي بدأ حياتهُ بالتعليم والتثقيف فكان يخيل الى الكثيرين انهُ سيسير سيرة اهل العلم المعروفين في الشرق في عصره كما نهدهم، يخلدون الى طلب العلم على طريقة العرب من التبحر في قواعد الصرف والنحو والتوسع في البيان والبلاغة والفقه فيقف عندها يجادل في رأي سيبويه والخليل والشافعي ومالك قانعاً بهذا الرذاذ من العلم وبالكفاف من العيش كسواه من العلماء لا يتفرون للعالم الطمع بالحياة وبالجاه والرفاهية والمال. ولكن جاء صروف فخرج عنهم طالباً العلوم الرياضية والفلسفية معتنياً بالحياة في كل شانها فاثبت للعالم حقهُ منها وان طلبهُ العلم يسهل عليهِ السل فينال حظهُ من المعرفة ومن الرخاء. فحيا الله صروف حيًّا وحيا الله صروف ميتاً فقد عاش ومات وهو مثل الاصلاح رحمهُ الله

ثابت ثابت

---

٢ — صروف في معاصريهِ

مثال اعلى للانسانية

« لديَّ محكمة غير المحاكم الاهلية والمحاكم المختلطة وهي محكمة الضمير محكمة الوجدان محكمتي انا هذه المحكمة تقول لي انهُ يجب عليَّ الخ »

هذا ما كتبهُ اليَّ المرحوم من جواب على خطاب في شأن عرضتهُ عليهِ من الشؤون التي كنت اشرف عليها لمصلحتهِ وهو ترديدٌ لبعض ما كان يقولهُ لي ويعمل بهِ ويريدني عليهِ — والمثل يقول : استفت قلبك وان أفتوك . لقد كان رحمهُ الله قانون نفسه

كلفني منذ سنين ان اتم عملاً لهُ بهِ علاقة كبيرة وكان الموظف المدير لهُ قد اساء تدبيره فحصلت بسببهِ منازعات بينهم المرحوم فضَّها فكتبت مذكرة عن احدى قضاياهُ سردت فيها وقائعها باسلوب توخيتُ فيهِ مصلحتنا ووجهة نظرنا وأغفلت وتحيفت ذكر ما هو لمصلحة خصمنا فاعترض عليَّ المرحوم فأجبتهُ اني بهذه المذكرة ادفع مزاعم خصمنا بالاسلوب الذي كتب بهِ مذكرته فانا مضطر لمصاولته في ميدانه وأخشى ان بسطت الامر كما هو ان يأخذ الخصم من اعترافنا ما يوافق مصلحتهُ وينكر علينا مالا يوافقها فنخسر القضية بصراحتنا وانكاره ففكر المرحوم قليلاً ثم قال « لا تعرض عليَّ شيئاً كهذا فاذا اضطررت فافعل ما تراهُ فاني لا استطيع ان اوافق الاَّ على ما اعتقدهُ حقاً وعدلاً »

وطلبت اليهِ مرة ان يتوسط لي عند احد الرؤساء في امر يهمني ورجوتهُ ان لا يخبرهُ اني بمصر اذا سأل عني فاجابني « اود ان اجيب طلبك في هذا ولكن لساني لم يتعود الاَّ الصدق فأخشى اذا سألني ان يسبق لساني الى ما تعودت . سافر أنت وأنا اخاطبك حالاً بما يكون »

« والوزن في بوليصة الشحن ١٣٢٤ كيلو ولكن يقول وكيل المحل الذي اشتريت منه هذه المواسير ان وزنها الحقيقي ١٨٣٠ ولكنه يرطل الوزان ويال لكي يخفض اجرة الشحن وانا مرتاب في قوله ولو كنت موجوداً لما قبلت منه مطلقاً ان يغش الحكومة فيحسن ان تزنوها »

هذا ما كتبهُ اليَّ من خطاب والامر فيهِ ظاهر انهُ لا يقبل ان يغش أحداً حتى الحكومة في امر صغير كهذا يعدّ في عرف الجمهور الآن من صغائر اللمم

واذكر انهُ في بعض القضايا التي لهُ بها علاقة كبرى — عرضت عليهِ أنهُ يمكن الصلح فيها بفائدة لجانبهِ اذا عرضهُ بنفسه على صاحب الشأن فيها وهو من كبار الاعيان فأبى قائلاً « أخشى ان لا أجيد عندهُ ما احب فيشتد عليَّ الامر اكثر مما لو كان الرجاء لغيري » فراجعتهُ وطمأنتهُ وعرضت عليهِ ان لم يذهب هو فليكلف . . . . فاجابني أنا شيخ ومريض فيصعب عليَّ ان اسافر في عمل يحتمل ان لا أجد فيهِ ما أحب . كم يفوتنا من هذا السعي ؟ الفا جنيه . أحسبها بعض ما خسرنا او كسبنا فهذا

احب لي ؛ فلم يحبّ عليَّ عدم الارتياح فقال « اعرض انت اذا شئت على .... فهو اقدر مني على السفر ويستطيع في هذا الامر لي مالا استطيعهُ لنفسي »

« المبدأ الذي نجري عليهِ في تخفيض ما لنا على المستأجرين المتأخرين هو اما ان زراعتهم لم تسدّد ما عليهم حينذاك أو انهم انقرضوا بعد ذلك فلم يعودوا قادرين على التسديد او انهُ لم يبق لي سبيل لتحصيل كل مالي عندهم فأقبل جزءًا منهُ »

هذا ما كتبهُ لي لمعاملة مستأجري ارضه المدينين وكان وكيله قبلاً قد رفع عليهم قضايا فكتب اليَّ الدكتور في ذلك يقول : « وقد دفع فلان كذا جنيهاً رسماً لهذه القضايا على غير ارادتي الخ . » وكان بيد احد المستأجرين اتفاق وعلى الاتفاق كلمات تدل على انهُ (خالص من الدين) زعم انها بخط وامضاء هذا الوكيل ولكن هذا انكر ذلك في جواب ارسلهُ اليَّ فرأيت ان ارفع دعوى على المستأجر فعرضت الامر على الدكتور وقلت ان وكيله سيسأل في الموضوع بالمحكمة واذا ثبت ان الامضاء امضاؤه فربما ينالهُ شيء من الضرر ولو من وجهة ادبية فطلب ان ارسل اليهِ الاتفاق اولاً فلما اطلع عليهِ كتب اليَّ يقول : « دع المستأجر فأني ارجح صحة قوله وان يكون فلان الوكيل قد لعبي ومهما يكن فاني لا أريد ان ينالهُ أي ضرر وانا لا أريد ان يضر احد بسببي الخ . . »

لقد كنت حينما اشاهد شفقتهُ ورحمتهُ بمن دونه وتسامحه مع من يساويه اذا ظفر بهِ فما احسبهُ والله الا مثالاً حيًّا لروح الرحمة الكائنة في آيات الانجيل وكنت حينما ارى شدته في التمسك بحقهِ وحمايتهُ في مدافعة من يدافعه عنهُ احسبني امام مؤمن يدافع عن يقينه او امام شاب تدفعهُ قوة الشباب الى الدفاع عن حرمه ومع ذلك كان لا يلبث ان يعود الى تسامحه ما وجد الى ذلك سبيلاً . كتب اليَّ يقول عن خلاف بينهُ وبين احد معامليه « لا بد أن آخذ حقي كلهُ . ولو قال لي ان هذا حقك واريد ان تسامحني فيهِ فلربما كنت اقبل ذلك عن طيب خاطر »

كان بينهُ وبين احد جيرانهِ في الاطيان خلاف على قطعة ارض طال النزاع بسببها حتى انقلب الى تقاطع شديد وحدث وانا عنده أن وقع ذلك الجار وهو عمدة في امر اكربهُ وانتهز ذلك بعض خصومهِ لتضمّ اليهم في مناوأته فأبى رحمهُ الله وقال : « لا يليق بي ان استغلّ مصيبة جاري » وكان ذلك بدء حسن التفاهم بينهما فلما تم قال لي : « ان ما تم اليوم قضى على آخر ما كان بيني وبين جاري من سوء التفاهم وكم كنت اود ان يتم فالحمد لله »

ووجدت بخطه على كتاب اهدي الى المقتطف « لا يقرظ » فسألته لِمَ ؟ فقال « ان مؤلف الكتاب نظر الى موضوعه من وجهة واحدة مستنداً على مصدر واحد فجاء الكتاب بعيداً عن الاعتدال والصواب ولا استطيع ان اقرظ كتاباً كهذا الا اذا أشرت إلى ما ذكرت وحينئذٍ لا يسكت مؤلفه وانا اكره الجدل وعندي من المواضيع المحققة النافعة ما هو أولى بوقتي »

دعاني مرة لمرافقته في معاينة أطيان جهة شربين بالغربية ثم عرض ما يُفضَّل معهُ تأجيل قيامه من مصر وكنتُ وصلت اليها مساء على نية ان نسافر معاً صباح اليوم التالي فقلت لهُ لا بأس من التأجيل وكنت حينئذٍ موظفاً في احدى المصالح فقال لي « ان وقتك ليس ملكك فلتذهب في القطار الاول ونعود في القطار التالي » ولما وصلنا الى المنصورة وكان يعرف ان ابني في مدرستها الابتدائية قال ان هذا يوم الخميس فلتأخذ ابنك معنا قلت لهُ أن ذلك يستدعي تأخير قيامنا من المنصورة ساعة ونصف ساعة قال لا بأس فلما أحضرت ابني أخذ الدكتور يمتحنهُ ويشجعهُ ويظهر لهُ الارتياح فقلت أن سنه كذا ولم يزل في سنة كذا فقال الدكتور « لا تعجل عليه ان العمر المناسب لبدء الدراسة الابتدائية تسع سنين وخصوصاً اذا لم يكن الولد قوي البنية جداً . ان الولد اذا دخل المدرسة صغيراً ضعف جسمه وعقله وتأخر في الدرس وسقط في الامتحانات أما اذا دخلها بعد ذلك السن وهو قوي الجسم والعقل فانهُ يعوض ما فاتهُ باستمرار تفوقه في الفصول بدون تأخر » وما أصح هذا !

ولما اخذنا في الاتفاق على ان اضع مشروعاً اصلاحيًّا لبعض اطيانه واطيان اخرى كان في النية شراؤها حصل اخذ ورد في بعض الاشتراطات فقلت لهُ لا داعي لوضع شروط واني واثق بحسن رأيك وعطفك فقال « اني اريد ان احتاط لمستقبلك فانت ذو عائلة واخشى أن يحصل شيء فيتعبك ورثتي فاكتب التعويض الذي تريده اذا ارادوا اخراجك »

وكان رحمهُ الله وانا باطيانه يأتي اليَّ فيمكث يوماً فاكثر فكنا اذا انتهينا من العمل نتحادث في مواضيع شتى وكان يسر حينما يرى اولادي يأنسون به وقد كان يلاطفهم ويرشدهم الى الطريقة المثلى في الاستذكار وحفظ الصحة ورأى خط ابني دون ما يجب فكان يوصيه « بالتمرن على الاعمال اليدوية واجادتها ومحثهُ على انعام النظر في الاشياء حتى تتربى فيه ملكة الملاحظة والانتباه » وكان اولادي يفرحون بوجوده

ومحادثته لانهُ كان غاية في اللطف والرعاية وكان اسلوبهُ غاية في السهولة والافادة وكان يقول لي ان كتب الاحداث يجب ان تكون من وضع اكبر الاساتذة

وكنت استمدُّ رأيهُ في بعض المسائل فكان يجيبني بطريقته البديعة في التمثيل فمن ذلك « اذا كنت ساكناً في منزل لا ترضاهُ فهل تهدمهُ وتظل في العراء او تبني غيره اولاً » هذا ما يقوله في مقابلة الآراء الثائرة يقف على بعض المعتقدات الدينية والمذاهب الاجتماعية

وقوله « ايهما احرى اذا دخلت قصراً من القصور ان تنزه نفسك في محاسن بنائهِ ومشتملاتهِ او ان تقف بجانب مرحاضه متأففاً ، لماذا لا تنظر الا مساوئ الناس دون محاسنهم ؟ يجب ان لا تذكر المساوئ الاَّ للعبرة بها والتنفير منها اما ذكرها وحدها للحطّ من اقدار اصحابها وتسوية سمعتهم والتشفي منهم فليس من الصواب في شيء »

نهاية كل حي

كانت فكرة الموت تساوره قبل وفاته ببضع سنين وكثر ترددها على لسانهِ بعد وفاة اخويه. نظر مرة الى بستان حديث بجوار منزله فقال « انظن اني اعيش حتى اقطف ثمراته ؟ »

زار في آخر مرة اطيانهُ في الفيوم وكانت آثار المرض بادية عليهِ ثم اشتدَّ عليهِ المرض في المساء اشتداداً اقلقني فكان مما قالهُ لي حينئذٍ « انا لا اخشى الموت فـ ٧٥ عاماً قضيت منها ما ينيف على الـ ٥٠ احمل القلم عمر كبير ولكن اريد ان اموت في بيتي بمصر فاجتهد ان توصلني اليهِ حيًّا »

لقد كان رحمهُ الله يرى « انهُ ليس من المعقول ان تكون نهاية الانسان بعد هذا التطور والرقي الفناء المطلق . لا . وان قصور وسائلنا عن ادراك ما بعد الموت لا ينفي وجود تطور آخر للانسان كروح ذلك الوجود الذي يقتضيهِ النظر الفلسفي وكثيراً ما كانت الفلسفة رائد العلم الى الحقائق »

واني لارجو ان يكون الآن قرير العين في الحياة الاخرى التي كان يعتقد بها فلسفيًّا ويحاول الوصول لاثباتها او تعرفها باسلوب علمي

أتكون مثل عواطف صروف ، وعقله ، وحكمته ، مصيرها الى الفناء ؟ اذاً يكون هذا الخلق وتطوره عبثاً في عبث . تعالى الصانع الحكيم عن ذلك « ما خلقنا السماء والارض وما بينهما لاعبين » صدق الله العظيم

احمد الالفي